مهرجان جرش 2001
محمود درويش كان هناك

جهاد هديب*

لم يكن الواقع السياسي حاضراً بسطوة شديدة فحسب، بل لقد تسبّب اختيار الشعراء لقصائد تستجيب إلى تلك السطوة برداءة الشعر في مهرجان الشعر الموازي لمهرجان جرش للثقافة والفنون الذي افتتح مساء الثلاثين من تموز الماضي واختتم في التاسع من هذا الشهر .

قرابة خمسين شاعراً من العراق ولبنان ومصر وسوريا والكويت وتونس واليمن، فضلاً عن الدولة المضيفة لم تنجح رغم محاولة الاقتراب من «الانتفاضة»، وكسب جمهور حقيقي للأمسيات الشعرية، وربما أن الأمسية الافتتاحية التي قدمها محمود درويش هي الوحيدة التي انتشلت مهرجان الشعر مما حلَّ به .

فهو منذ أن خرج إلى المنصة في قاعة تتسع في العادة لقرابة أربعة آلاف مقعد فاض الحاضرون عندما بدا الشاعر متحمساً للقول بأنه جاء بحماسة عالية لجعل الأمسية احتفاء بالشعر لا بالشاعر في هذه اللحظة السياسية الحرجة .

وبحسب ما قال درويش، فقد قرأ ما يرضي الشاعر وما يرضي الناس ثم ما يرضي الشاعر والناس . غير أن الناظر قليلاً في الأمر، لم يقرأ درويش سوى ما يريد سواء من جديده أم من قديمه، لتكون القصيدة في حد ذاتها تعبيراً عما يمور في أرواح الناس .

قرأ درويش من قديمه قصيدة «مديح الظل العالي» وتحديداً تلك المقاطع التي لها صلة بمجزرة صبرا وشاتيلا، كأنما ليذكّر بما تخوضه المناضلة الفلسطينية سعاد سرور الناجية دون أهلها من المجزرة هي ومحاميها في بلجيكا، وقرأ أيضاً قصيدته الشهيرة (عابرون في كلام عابر) التي أثارت إبان الانتفاضة الأولى غضب رئيس الوزراء الإسرائيلي الإرهابي «شامير»، وقرأ «قربان» التي كتبها في الشهيد الفلسطيني

في هذه الانتفاضة .
إلى ذلك، قرأ درويش أربعاً من قصائده الجديدة: اثنتين منهما عن الرّاحلين إميل حبيبي وتوفيق زياد، وأخرى بعنوان «زيتون روماني» اقترنت الأسطورة فيها بالشعر في فضاء سوري تاريخي، وقصيدة أخيرة فيها تذكارات جمعت درويش إلى الشاعر الإغريقي «يانيس ريتسوس»:

«في دار بابلو نيرودا
تذكَّرت ريتسوس
حيث أثينا
ترحب بالقادمين من البحر وفي مسرح
مضاء بصرخة ريتسوس:
آه فلسطين
يا اسم التراب
ويا اسم السماء
ستنتصرين
وعانقني ثم قدمني
شاهراً شارة النصر
فشعرت بأني انتصرت
واني انتصرت»

أمسية درويش لم تكن استثناءً جماهيرياً، بل بالمعنى الجمالي أيضاً، فقد شهدت إحدى الأمسيات هبوط شاعرة لبنانية (شابة) إلى المنصة بالمظلة، ولفرط ما لم تكن على صلة بالشعر، فقد هوجمت الأمسية بالصحافة المحلية بقسوة أحرجت لجنة الشعر في إدارة المهرجان .
أيضاً، مثلما هي عادة لشعراء عرب كثيرين، فإن الإمساك بالميكروفون والتشبث به كما لو أنه كرسي في سلطة، أرهق أرواح المتفرجين كما أرهق روح الشعر .. ولقد حدث ذلك في غير أمسية .
والحال أن عدداً من الشعراء الضيوف، ونظراً لرغبتهم في الإلقاء في الأيام الأولى للمهرجان، أربكوا البرنامج الذي لا يزيد فيه عدد الشعراء عن خمسة للأمسية الواحدة ولا يقل عن الأربع، ما أحرج لجنة الشعر واضطر عددٌ من الشعراء المحليين إلى الانسحاب .
مع ذلك، قدم عدد من الشعراء المشاركين قراءات مميزة، لكنها تظل استثنائية من بينهم: نزيه أبو عفش ويوسف عبد العزيز وهدى أبلان ومحمد الغزي وأمجد ناصر وسامر أبو هواش .
وإذا كان الشعر «اكسسواراً» على المهرجان الذي يتمثل ثقله الأساسي في الفعاليات الغنائية التي تقام في مدينة جرش الأثرية (45 كيلومتر إلى الشمال من العـ ـاصمة عمان)، فإن الحلقة النقدية التي تعلقت

محاورها بالأدب والمقاومة بدت «إكسسوارا» على هذا «الاكسسوار»، حيث لم يحضر إحدى الندوات سوى اثنين من الجمهور .

من بين الأفكار التي قدمها الناقد يوسف سامي اليوسف في بحثه (شعر المقاومة في نصف قرن: 1917-1967) تبرز فكـرة أن الشاعر الراحل فواز عـيد (1938-1999) كان من الشعراء السباقين إلى الكتابة الشعرية عبر قصيدة التفعيلة الحداثية، وذلك منذ مجموعته الشعرية (في شمسي دوار) التي نشرت في بيروت العام 1965 ليصبح واحداً من رواد الشعر الفلسطيني ذي الطابع الحداثوي إلى جوار توفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش، حيث أعاد الناقد اليوسف أصول هذا التوجه إلى الشاعر حنا أبو حنا أواسط الخمسينيات .

أما الروائي السوري نبيل سليمان، فقد قدم ورقة بعنوان «مقاومة الاحتلال في الرواية الفلسطينية» جاء فيها: إن المدونة الروائية الفلسطينية انشغلت بتحرير المعنى في غمرة تضبيبه وأدلجته وصولاً إلى الحديث عن أفوله، وهذا ما يعنيه تشكيل الرواية الفلسطينية للمعنى وما يدفع باشكاليات شتى ليس أولها ولا آخرها ما بين السياسة والفن من جدل، موضحاً أن الفيصل يتمثل في التشكيل الروائي للمعنى الذي غدت فيه المقاومة عملاً فدائياً أو حجراً أو وعياً نقدياً أو عملاً سياسياً أو كتابة أو .. أو انتفاضة .

أما القاصة والروائية الفلسطينية نعمت خالد، فقد خلصت في بحثها «السردية الروائية للمقاومة في الأردن»، الرواية في أربعة نماذج درستها، إلى أن السردية الروائية قامت على الشكل عبر حكاية استهدفت أن يغدو الإنسان قيمة انسانية حضارية وتاريخية نبيلة، وبخاصة في فضاء عربي تتوحد فيها مقاومة الصهيونية بمقاومة الاستبداد والفساد، كما تتوحد قضية الهوية والحداثة مع قضية الحرية والديمقراطية .

أما الشاعر والناقد د. محمد عبيد الله وفي بحثه «ماجد أبو شرار: قصص أولى ما أجل المقاومة»، فرأى أن الشهيد «أبو شرار» قدّم نموذجاً ناجزاً لشخصية المقاوم وشخصية الفدائي كما لو كان يحلم بهذه الشخصية ويهجس بها مبكراً .

وبحسب الناقد عبيد الله فإن «أبو شرار» قد عرض للثورة والمقاومة في صيغة موضوع أثير، بينما تحرش بالبناء المستقر للقصة كما تحرش بلغتها الرائدة .

الناقد محمد لطفي اليوسفي في بحثه «القراءة المقاومة / القراءة الخائنة» أشار إلى النقد العربي الذي ناقش فكرة المقاومة اهتم بقضايا شكلية وأهمل المعنى، فيما كانت النصوص تصدر عن تصور استشراقي ظلامي أساساً وأن المفاهيم المستخدمة في هذا النقد تضطلع بدور مضلل، وتفتح الحديث عبر مضائق البنيوية والتفكيكية والمدارس الغربية بطريقة أشبه بالانتحال الثقافي، فهي تواجه أسئلة الثقافة بالمغالطة، فيما تمضي الكتابة نحو يتمها وخرابها في هذه اللحظة التاريخية التي تشهد انحساراً في دور المثقف العربي .

ودعا الناقد فخري صالح في بحثه «نحو إعادة تأهيل مفهوم الأدب الفلسطيني المقاوم»، إلى قراءة أدب

المقاومة في سياقه التاريخي والجمالي، لتعميق فهم التجربة الفلسطينية المعاصرة لجهة استعادة وظيفته التعبيرية الرفيعة بصورة فنية لا تكتفي برفع الشعار الفج .

والى ذلك فقد انتدى في سياق الحلقة النقدية نفسها الناقدان د. إبراهيم أبو هشهش والسيدة امتنان الصهاوي .

*** شاعر وصحافي فلسطيني يقيم في الأردن.**